

دور الكتب الإسلامية وخرائن التراث

لم تكن حركة إحياء التراث عملاً فردياً يتطوع له من يحصون على حماية العربية والإسلام ديناً ودولة ، وإنما اضطلعت الدولة بمسئولياتها تجاه العمل القوي الجليل ، فكان إنشاء دور الكتب العامة ، من أقوى الشواهد على تقدير الدولة للتراث العلمي والأدبي ، ووعيا لقيمة الكتاب وخطر رسالته .

ويشهد التاريخ لأمتنا بأنها حرصت منذ قامت دولتها الإسلامية الكبرى ، على أن تكون المكتبات العامة حارسة للمخطوطات ، ومدارس مفتوحة الأبواب لطلاب العلم . ورصدت لها من الجهود والأموال ما جعلها مقصد العلماء والطلاب في زمن لم يكن يعرف سوى الكتاب وسيلة لنشر الثقافة .

ولقد بدأت هذه العناية من عصر مبكر ، فما كاد العرب يؤسسون دولتهم حتى جدوا في جمع تراثهم القديم وتدوينه ، ونشطوا في التأليف في علوم الإسلام . وسأيرت هذا النشاط الجاد ، حركة منظمة لترجمة الآثار الفكرية والعلمية لمختلف الشعوب ذات الميراث الحضاري . ثم امتدت نظرهم الثاقبة إلى الأفق العالمي الرحب ، فأقبلوا يجمعون ما عرفت الدنيا لعهدهم من كتب ذات بال .

والأمة العربية قد بدأت بالإسلام تخرج من جزيرتها حاملة لواءه الأغر ، فما مضى ربع قرن من الزمن بعد الهجرة ، حتى كانت قد فتحت مصر والشام والعراق وأظل اللواء الواحد شعوبها وارثة حضارات الفراعنة والكلدانيين والأشوريين والفرس والفينيقيين . ثم أهل القرن الثاني للهجرة ، وقد امتدت الفتوح الإسلامية إلى الشمال الإفريقي وتغلغلت في الشرق الآسيوي .

وحدث تحول تاريخي خطير :

فهذه الشعوب كانت قد خضعت لحكم اليونان والفرس والرومان نحو ألف عام

(٣٣١ ق م : ٦٤٠ م) وحاول الغزاة عبثاً أن يفرضوا عليها أديانهم وألستهم وقومياتهم ، فلقد تشبثت شعوب المنطقة بقومياتها وعقائدها ، وناضلت عنها في استبسال ضد الغزو الجائح ، واحتملت في سبيلها أشنع تعذيب واضطهاد .

وخرج الغزاة من المنطقة ، لم يتركوا وراءهم قومية يونانية أو فارسية أو رومانية ، وكأنما مثلهم ومثلنا . قولُ الشاعر العربي القديم :

أحارثَ إنا لو تُسَاط دماؤنا تزيالكنَ حتى ما يَمَسَّ دمٌ دما !

وجاء الإسلام فَمَ له فتح هذه الأقطار في أعوام معدودات ، وترك لها حرية العقيدة واللسان ، فلم تلبث شعوبها جميعاً أن انضوت تحت لوائه في استجابة وطواعية ، وبدأت تتعرب من الجليل الأول بعد الفتح ، فلم تمض بضعة أجيال حتى تم تعريبها ودخلت فيما يُعرف تاريخياً بلور العروبة الصريحة^(١) .

ولا يستطيع التاريخ أن يجد تفسيراً لتماثل هذه الشعوب تاريخاً ومصيراً ، وإجماعها على رفض الاندماج في الغزاة ، ثم استجابتها للإسلام والعربية عن طواعية واختيار ، إلا أن يرده إلى وحدة جبرية ، هياً لها تماثلٌ في العقلية والمزاج والمناخ وتقارب في الأصل البعيد ، رسخ مع توالي الحقب والأدهار .

* * *

وبدأت الدولة الإسلامية تأخذ دورها القيادي للبشرية في الحضارة المادية والمعنوية ، فكانت نهضتها الفكرية والعلمية من دعائم هذه الحضارة ، وكانت عنايتها بإحياء تراثها وتشديد دور الكتب ، تسير هذه النهضة مؤثرة فيها ومتأثرة بها .

* * *

(١) محمد عزة دروزة : تاريخ الجنس العربي ٢١/٣ ، ٩/٤ ط بيروت .
وانظر معه الفصل الثاني من كتابي (لنتنا والحياة) ط معهد البحوث والدراسات العربية : ١٩٦٩

وإذ نلقى نظرة سريعة على بعض دور الكتب العامة في تلك العصور الإسلامية المبكرة ، أود أن أشير إلى محاولة جادة رائدة في هذا الميدان ، استطاع بها المؤرخ اللبناني « فيليب دى طرازي » أن يجمع ما تناثر وتبعثر في ألوف المصادر ، من أخبار ومرويات عن خزائن كتبنا . وأثمر جهده الباذل المضحى ، سفرًا جليلًا في مجلدات ثلاثة ، نشرته دار المعارف اللبنانية سنة ١٩٤٨ بعنوان « خزائن الكتب العربية في الحافقين » .

وإذا كان الميدان بطبيعته يحتمل إضافات جديدة مما فات الأستاذ الكبير أن يذكره وبما كشفت عنه البحوث المعاصرة من أبناء دور أخرى كانت مجهولة لنا ، فالذى لا ريب فيه هو أن هذا السفر الجليل لا يزال مرجعاً هاماً للذين يعينهم أن يعرفوا كنوز ذخائرنا التي شهدها التاريخ تملأ ساحة الدولة الإسلامية وتشع نورها على بعيد الآفاق فتسوخ ظلمات الجهل .

وفي حدود ما يسمح به المجال هنا ، أقدم ثلاث دور منها فحسب ، اتجه القصد في اختيارها من بين الألوف من دور الكتب الإسلامية ، إلى ملح الجهود المتتابعة التي تعاونت على حمل العبء ، من مركز الدولة الإسلامية في صميم المشرق الآسيوي على ضفاف دجلة ، إلى قلب العالم الإسلامي على ضفاف النيل ، ثم إلى أقصى المغرب الإفريقي بالأندلس على ساحل بحر الظلمات .

بيت الحكمة ببغداد :

حتى آخر عهد الخليفة المنصور (١٧٠ هـ) ، كانت مخطوطات التراث ودفاتر العلم . تحفظ في قصر الخلافة ببغداد . حتى ضاق عنها على سعته .

ثم كان هرون الرشيد هو الذي اتجه إلى إخراجها من جدران القصر بعد أن تضخم رصيدها من التراث المدون والمخطوطات المؤلفة والمترجمة ، لتكون مكتبة عامة مفتوحة الأبواب للدارسين وطلاب العلم .

وبدأ فأسس داراً رحبة فخمة للمكتبة ، نقل إليها تلك الذخائر وسماها « بيت الحكمة » تقديراً لجلال رسالتها . فكانت أكبر وأقدم المكتبات العربية العامة .

وفي بيت الحكمة ، خصص جناح للترجمة التي واصلت نشاطها غير مكنتية بما سبق نقله من تراث الفكر القديم ، وحيء بكتب الطب من أبقراط وعمورية وبلاد الروم . وعهد بها إلى « يوحنا بن ماسويه » السورياني المتعرب الذي قام بترجمتها . يعاونه عدد من المترجمين والكتبة الخذاق . كما جيء بكتب الحكمة والفلك من فارس ، وعهد بها إلى « أبي سهل الفضل بن نوبخت » الذي نقلها من الفارسية إلى العربية ، مواصلاً الحركة التي بدأها « ابن المقفع » بترجمة تراث الفرس . وأضيف إلى خزائن بيت الحكمة ، ما صنف علماء العربية والإسلام في علومهم الأصلية ، إلى جانب ما دونوه من تراثهم المجموع .

ومات « هرون الرشيد » وبيت الحكمة زينة بغداد عاصمة العربية والإسلام ، ورصيده من ذخائر الكتب المؤلفة والمترجمة ، يعيد إلى الأذهان ذكرى مكتبة الإسكندرية الكبرى .

فلما ولي « عبد الله المأمون » الخلافة ، لم تشغله شواغل السياسة والحكم ، عن الاهتمام ببيت الحكمة ، فبعث رسله إلى آسيا الصغرى وقبرص والهند والحيشة في طلب الكتب ، وجتهد المترجمين لنقل ما حُمل إلى بيت الحكمة من كتب يونانية وسريانية وفارسية وهندية وإفريقية ، حتى بلغ ما أنفقته الدولة على ترجمة كتب اليونان وحدها ثلاثمائة ألف دينار فيما يروون . وتلقى بيت الحكمة ، جديد

المصنفات العربية والإسلامية ، التي شارك فيها علماء المسلمين من الفرس والروم ومصر وغيرها من أقطار الدولة ، ممن تعرب آباؤهم وأجدادهم بعد الفتح^(١) .

ومن أشهر من تولوا منصب القَيِّم على بيت الحكمة في عصر المأمون « سهل » ابن هارون « الفارسي الأصل ، وكان تحت إشرافه مئات من المترجمين والحطاطين والنساخ ، وآخرون من المجلدين والمذهبين ، ذكر « ابن النديم » في « الفهرست » أسماء مشهورين الذين برعوا في فن تذهيب المصاحف وصناعة تجليد الكتب في خزائن بيت الحكمة . كما ذكر أسماء مشهورى المترجمين من العصر الأموى إلى عصر المأمون .

وظل بيت الحكمة ببغداد ، وكان يدعى أيضاً دار العلم ، مزاراً للعلماء من أنحاء الدولة الإسلامية الكبرى ، ومقصداً لطلاب العلم والمعرفة ، لمدى قرون خمسة تقريباً . وقد كان علماء العربية والإسلام خارج العراق ، يجعلون رحلتهم إلى بغداد واجباً علمياً ، فيحجون إلى بيت الحكمة ويطلعون على ما فيه من نفائس المخطوطات في زمن لم تكن المطبعة فيه قد عرفت ، لتيسر الإعلام عن هذه النفائس والتعريف بها ونشرها والإفادة منها .

حتى لقيت دار العلم مصيرها الفاجع مع سقوط بغداد سنة ٥٦٥ هـ ، على ما سوف نشير إليه في الحديث عن محنة تراثنا .

(١) جمال الدين القفطى : إعلام العلماء بأخبار الحكماء : ٣٨٠ .

مكتبة العزيز بالله الفاطمي بالقاهرة :

قامت دولة العبيديين الفاطمية في المغرب الإفريقي مستقلة عن الخلافة العباسية ومناوئة لها . وقد امتد سلطان الدولة الفتية من منتصف القرن الرابع الهجري إلى مصر والشام والحجاز واليمن ، وأوشك أن يهدد الدولة العباسية في مركزها الرحيمي بالعراق . ولم يكن ما بين الدولتين صراعاً سياسياً ومذهبياً فقط ، بل كان كذلك تنافساً على النفوذ الأدبي والفكري . وكما أسس أبو جعفر المنصور العباسي مدينة بغداد قبيل منتصف القرن الثاني الهجري عاصمة لدولة العباسيين ، أسس المعز لدين الله الفاطمي مدينة القاهرة عاصمة لدولة الفاطميين ، إثر دخولهم مصر ظافرين بعد منتصف القرن الرابع للهجرة . وكما ازدادت بغداد ببيت الحكمة التي أكسبتها مجداً وعزاً وجذبت إليها العلماء والطلاب من مختلف أقطار العالم الإسلامي الكبير . حرص الفاطميون على أن تزدهر القاهرة بمكتبة تضارع بيت الحكمة عظمة وشهرة .

وقد تم إنشاء هذه المكتبة القاهرية في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، الذي تولى الخلافة سنة ٣٦٥ هـ بعد المعز لدين الله مؤسس الدولة الفاطمية بمصر وباني عاصمتها القاهرة (٣٥٩ هـ ، ٧٩٠ م) وجامعها الأزهر (٣٦١ هـ ، ٩٧٢ م) . والأخبار التي وصلت إلينا عن هذه المكتبة ، تشهد بأن العزيز بالله كان شديد الولع باقتناء الكتب والحرص على جمعها والاستكثار منها ، وبذل الأموال الطائلة لها . وكانت الكتب على عهده ، لا تزال تكتب بخط القلم ، فيتكلف نسخها من الجهد والمال والوقت ، ما يجعل عدد النسخ من الكتاب محدوداً ، ويذكرون مع ذلك أن مكتبة العزيز بالله لم تكن تقنع بالعدد القليل من نسخ الكتاب الواحد ، بل تستكثر منها قدر المستطاع . وفي تاريخها أنها كانت تقتنى في أول عهدها ثلاثين نسخة خطية من (كتاب العين للخليل بن أحمد) وهو من أوائل المعاجم اللغوية العربية ، ومائة نسخة من (كتاب الجمهرة لابن دريد) وهو من أصول كتب اللغة ، وعشرين نسخة من (كتاب تاريخ الأمم والملوك) للطبري عميد مؤرخي الإسلام القدامى .

وقد نما رصيد المكتبة من هذه المخطوطات ، حتى بلغت نسخ تاريخ الطبرى فى آخر خلافة الفاطميين ، ألفاً ومائى مخطوط .

واختلف المؤرخون فى التقدير الإحصائى لرصيد مكتبة العزيز بالله ، فمن قائل إنها كانت تقتنى مائى ألف كتاب ، ومنهم من وصل برقم الرصيد إلى مليون وسمائة ألف ، منها ستة آلاف وخمسمائة كتاب فى النجوم والهندسة والفلسفة ، واثنى عشر ألفاً من مصنفات العلوم الأخرى مترجمة ومؤلفة .

وهذا التفاوت بين رقمى الرصيد ، ما بين مائى ألف ، ومليون وسمائة ألف ، لفستَ المحدثين من مؤرخى الحضارة الإسلامية . ويظن « جورجى زيدان » أن فى هذا الرقم الثانى التباساً من حيث المقصود بجزارة الكتب القاهرية فى عهد العزيز بالله : أهى مكتبته منفردة ، أم معها خزائن الكتب الأخرى التى اقتناها أمراء البيت الفاطمى وأعيان الدولة بالقاهرة ، اقتداء بالخليفة (١) ؟

وليس هنا الاحتمال فى تفسير التفاوت الإحصائى ، بأقرب من القول بأن يكون الرقم الأول (مائتا ألف) للرصيد العدى لكتب المكتبة ، ويكون الرقم الآخر (مليون وسمائة ألف) لعدد المجلدات ، بما فيها من نسخ متعددة أو مكررة من الكتاب الواحد ، وغير مستبعد أن تصل المجلدات برقم الرصيد إلى أكثر من مليون ونصف مليون مجلد ، وفى المكتبة ألف ومائتا نسخة من (تاريخ الطبرى) مثلاً .

وقد يُظن أن هذه المكتبة العامرة ، إنما شيدت استكمالاً لأبهة السلطان دون القصد إلى النفع العام ، وأن الخليفة أمر بحشد أكداس الكتب فيها ، إرضاء لشهوة الاقتناء دون أن يحفل بأمرها ، كمثل ما فعل سلاطين آل عثمان فى عصر متأخر . لكننا نقرأ فى (وفيات الأعيان لابن خلكان) أن العزيز بالله كانت له عناية خاصة بجزارة كتبه ، يتعهدا بنفسه حيناً بعد حين . وقد عين لها قوما يتولى شؤونها ، كان يجالسهم ويقرأ له فى الكتب (٢) .

(١) تاريخ التمدن الإسلامى : ط دار الهلال بالقاهرة .

(٢) ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ترجمة العزيز بالله .

وتنقل الأخبار عنها ، أنها كانت دقيقة التنظيم والتنسيق ، ولها فهارس وقوائم مكتوبة بخط « ابن مقلة » و« ابن البواب » من مشاهير خطاطي العصر . كما كانت المكتبة تفتنى مع ذخائر المخطوطات ، خرائط جغرافية وأجهزة علمية هندسية وفلكية ، مما اخترعه علماء الدولة الإسلامية^(١) . فكانت المكتبة مفخرة من مفاخر القاهرة في عصر الفاطميين ، حتى لقيت مصيرها مع سقوط دولتهم في أواسط القرن السادس الهجري بعد طول احتضار .

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ١٩٨/٦ ط دمشق .

مكتبة الزهراء بقرطبة :

حين بدأت دولة العباسيين بالمشرق سنة ١٣٢ هـ ، كانت هناك دولة عربية إسلامية جديدة ، في طريقها إلى الظهور بأقصى المغرب الإفريقي . وتعرفون أن الدولة العباسية قضت على بني أمية الذين تولوا الحكم بعد عصر الخلفاء الراشدين ، فلم ينج من الأمويين إلا نفر قليل أفلتوا من المصير الفاجع . ومن هذه القلة الناجية ، كان « عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان » الذي اشتهر في التاريخ بلقب « عبد الرحمن الداخل » منذ دخل الأندلس بعد سقوط أسرته الأموية ، فشيّد هناك دعائم ملك شامخ عتيد ، وأسس للعرب وللإسلام دولة مجيدة عاشت نحو ثمانية قرون ، وكانت في عصر قوتها ووحدها منارة حضارياً لأضواء المغرب الأوربي ظلمات عصوره الوسطى ، وزوّده بمدد سخى من كنوز الفكر الإسلامى والثقافة العربية ، كانت من أهم المعابر التاريخية للحضارة من الشرق إلى الغرب .

وقد بلغت دولة الأمويين بالأندلس أوج مجدها في عهد عبد الرحمن الناصر ، ثامن خلفائهم من بني عبد الرحمن الداخل . وامتدت خلافة الناصر من سنة ٣٠٠ إلى ٣٥٠ هـ كانت قرطبة فيها العاصمة الكبرى للعلم والأدب والفن ، وإليها كانت رحلة طلاب العرب ، من شرق وغرب . وقضت سنن الحياة أن مثل ذلك الملك الشامخ لا يمكن أن ينهض على القوة السياسية والمنعة الحربية والتمدن العمرانى ، ما لم تؤيده دعائم راسخة من نهضة علمية وازدهار فنى . وذلك ما أدركه « عبد الرحمن الناصر » ، فلم يكف بما تهبأ للدولة في عصره من ذلك كله ، بل حرص أشد الحرص على أن يعد ابنه وولى عهده « الحكيم الثانى » ليدعم البناء الحضارى الذى شيده أبوه عبد الرحمن الناصر ، ووضع أسسه الأولى جدّه عبد الرحمن الداخل .

واستحضر الناصر لولده الحكيم أئمة العلماء وأقطاب الأساتذة ، فشغف بالعلم وأقبل على مجالسة العلماء ، فما تولى الخلافة ملقباً بالمستنصر بالله ، بعد أبيه الناصر ، حتى كان أعلم بني أمية بالأندلس .

وفي عهد المستنصر ، تم تشييد مكتبة قرطبة الكبرى في قصر الزهراء المشهور ، فلم يحض على تشييدها بضعة أعوام حتى صارت من كبريات دور الكتب العربية في التاريخ . ويقول « المقرئ : مؤرخ الأندلس » في كتابه (نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) إن المستنصر « كان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار ، رجالاً من التجار . ويرسل إليهم الأموال لشراؤها ، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهده » (١) .

ويبلغ من شغفه بالكتب وسخائه في البذل لها ، أن كان يتبع أنباء ما يظهر من جديد المؤلفات ونوادير المخطوطات ، ويسعى في سبيل جلبها إلى مكتبة الزهراء . من ذلك ما يذكره مؤرخوه ، أنه لما بلغه أن « أبا الفرج الأصفهاني » أتم تصنيف كتابه (الأغاني) بعث إليه من قرطبة ألف دينار ذهباً ثمناً للمخطوط ، فأرسل إليه أبو الفرج من بغداد نسخة منه قبل أن ينشره في العراق . وفعل المستنصر مثل ذلك مع القاضي « أبي بكر الأبهري » إمام زمانه في الفقه المالكي ، وتلقى منه نسخة خطية من شرحه مختصر ابن عبد الحكم في فقه الإمام مالك (٢) .

ولم تقتصر عناية المستنصر بالله على تزويد مكتبته بذخائر المخطوطات وكنوز العلم ، بل زودها كذلك بأشهر الخبراء والكتبيين وحذاق الخطاطين والنساخ والمشتغلين بالفنون والصناعات المكتبية .

وفي كتاب (نفتح الطيب) ، للمقرئ المتوفى سنة ١٠٢٧ هـ : « أن المستنصر بالله جمع بدار الكتب الحذاق في النسخ والمهرة في الخط والضبط والإجادة في التجليد فأوعى من ذلك كله . واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، إلا ما يذكر عن الناصر بن المستضى » (٣) .

ونشطت حركة الترجمة في عهد المستنصر بالله كما نشطت في عصر الرشيد والمأمون بالمشرق ، مع فرق واضح قضت به طبيعة الظروف وتفاوت الأوضاع : ففي بغداد اتجهت الترجمة إلى النقل عن اللغات القديمة غير العربية . أما في قرطبة فكان النقل عن اللغة العربية إلى لغات الفرنجة وبخاصة اللغتين الإسبانية واللاتينية . وكما كان المتعربون في المشرق يجيدون لغاتهم الأولى وكثرتها شرقية ، كان كثير

من أهل الأندلس يتقنون الإسبانية واللاتينية . ونضيف إلى هذا الفارق بين البيتين ، أن المكتبة العربية الأولى في بغداد ، اهتمت بالانتفاع بتراث الفكر القديم ، لتغذى الفكر الإسلامي بروافد سخية من ماضى المعرفة ، أما في الأندلس ، وقد نهضت بغداد بهذا العبء على خير وجه فلم تترك لقرطبة مجالاً فيه ، فكان الاتجاه إلى نشر الثقافة العربية التي بلغت عز نضجها وأوج نهضتها .

وأقبل الغرب على ورود هذا المنهل السخي ، حين كان الدور القيادي إذ ذاك للحضارة الإسلامية . وإلى قرطبة سعى طلاب العلم من أوروبا يدرسون في معاهدها وينقلون من ذخائر خزائنها . ومن أشهر هؤلاء الطلاب ، البابا سلفستر الثاني ، وكان في شبابه قد رحل إلى المغرب والأندلس وأقام هناك يدرس العلم وينهل من منابع الفكر . وعكف على مطالعة ذخائر المكتبة العربية ، وعاد إلى إيطاليا مزوداً بأعلى ثقافة في عصره ، فاعتلى كرسى البابوية في أخريات القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) .

وفي مكتبة الزهراء ، وفي غيرها من دور العلم بالأندلس والمغرب ، ترجمت إلى اللاتينية كتب الأدوية والطب والجراحة ، مثل كتاب الأدوية البسيطة لابن الوافد - الطيب العربي الأندلسي : ٩٩٧ م - وقد ترجم إلى اللاتينية نحو خمسين مرة . وكتاب الجراحة لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي الأندلسي - ١٠١٣ - وقد بقي أساساً للتعليم الجراحي بأوروبا لبضعة قرون . كما نقل تراث اليونان إلى أوروبا عن ترجماته العربية . ومن أعلام مترجمي العصر الأندلسي ، من العربية إلى اللاتينية ، جيرار دى كيمونا (١١١٤ : ١١٨٧ م) الذي نقل من العربية نحو سبعين كتاباً ، منها فلسفة الكندي والفارابي وقانون ابن سينا وعلم النجوم بلخار بن أفلاح وكتب أرسطو وجالينوس .

وليس المجال هنا لإحصاء ما نقل إلى أوروبا من ذخائر المكتبة العربية ، وإنما هي لمحة عابرة اقتضاها سياق الحديث عن حركة الترجمة في عهد المستنصر مؤسس مكتبة الزهراء بقرطبة ، وما اقتضته ظروف الزمان والمكان من الاتجاه بالترجمة إلى نقل ذخائر الكتب من العربية إلى الإسبانية واللاتينية .

وقد يلفتنا ملحظ آخر ، من الظواهر المميزة للبيئة الأندلسية . ففي تاريخ دار

العلم أو بيت الحكمة ببغداد ، لا نكاد نعرث على اسم امرأة في خدمة هذا الصرح العلمي ، اللهم إلا عبارة وردت في (رسالة الغفران) تشير إلى أمة غير عربية اسمها « توفيق السوداء » كانت تخدم في دار العلم ببغداد فتقدم الكتب إلى النساخ^(١) . وهذه الوظيفة تقابل في المكتبة الحديثة ، ما يعرف بالمناولين .

على حين نقرأ في تاريخ قرطبة الثقافي ، أنه « كان بالربض الشرق منها ، مائة وسبعون امرأة يكتبن المصاحف بالخط الكوفي » .

وكما اختلف المؤرخون في إحصاء ذخائر مكتبة العزيز بالله في القاهرة ، اختلفوا كذلك في إحصاء رصيد مكتبة الزهراء في قرطبة . ففي (نفع الطيب) أنها كانت أربعمائة ألف مجلد^(٢) ، وفي رواية أخرى نقلها « وليم درابر » في كتاب (الخصومة بين العلم والدين) أنها بلغت ستمائة ألف مجلد .

وكان لها فهارس منظمة ، بلغت أربعة وأربعين مجلداً . وذكر « ابن خلدون » أن أسماء دواوين الشعراء في مكتبة قرطبة ، كانت تملأ وحدها ثمانمائة وثمانين صفحة ، مما يشهد بضخامة رصيد المكتبة ، وأخذها بنظام الفهرسة التي قد يُظن أنها من مستحدثات النظم المكتبية العصرية^(٣) .



واللافت حقاً ، أن تأسيس مكتبة الزهراء بقرطبة ، يكاد يعاصر تأسيس مكتبة العزيز بالله في القاهرة . فقد ولي المستنصر بالله الخلافة الأموية بالأندلس من سنة ٣٥٠ هـ إلى سنة ٣٣٦ هـ وهو العام التالي لخلافة العزيز الفاطمي بمصر . وكما عَدَّ المؤرخون عهد الرشيد وابنه المأمون عصر القوة في الدولة العباسية ، عدوا كذلك عهد المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، عصر الازدهار للدولة الفاطمية ، وعهد الناصر وولده المستنصر بالله ، العصر الذهبي لدولة العرب والإسلام بالأندلس .

وهنا وهناك وهناك ، كانت النهضة العلمية تسير عصور القوة للدول الثلاث ، وكان بيت الحكمة في بغداد ، ومكتبة العزيز في القاهرة ، ومكتبة الزهراء في قرطبة ، عنوان هذه النهضة ورمزاً معبراً عنها وآية من آيات عزها .

(١) رسالة الغفران ، تحقيق بنت الشاطي . - ص ٢٨٧ ط ٤ ذخائر .

(٢ ، ٣) المقرئ : نفع الطيب - ١٨٤/١ .

كما كانت دور الكتب العامرة في المشرق ، ومن أشهرها : مكتبة المدرسة النظامية ، وخزائن كتب النجف الأشرف ، وخزانة سيف الدولة في حلب ، والمدرسة النورية ومكتبة أبي الفدا في حماة ، والظاهرية في دمشق ، وبنى عمار في طرابلس ...

وفي المغرب مكتبات : الجامع الأعظم في القيروان ، وجامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين في فاس ، والحكمة في مراكش ، والجامع الأعظم في مكناس ... كانت هذه الدور الثقافية وأمثالها مما لا يتسع المجال لاستيعابه ، تعطى تفسيراً تاريخياً لهذه النهضة التي حملت أمتنا لواءها في العصر الوسيط^(١).

(١) تجد تفصيل الحديث عن هذه المكتبات وغيرها ، في المجلد الأول من (خزائن الكتب العربية) .